سورية: درب الآلام نحو الحرّية
محاولة في التاريخ الراهن

حرره: عزمي بشارة

مراجعة: حمزة المصطفى

يعدّ كتاب عزمي بشارة "سورية: درب الآلام نحو الحرية، محاولة في التاريخ الراهن" الأشمل، ويكاد يكون الوحيد الذي يتناول الثورة السوريّة بجميع أبعادها وتشعّباتها خلال فترة عامين منذ انطلاقتها في آذار (مارس) 2011 حتّى آذار (مارس) 2013، بصورة تميّزه عن باقي الدراسات الصادرة عن الثورة التي جاءت "قطاعيّة" تتّسم بالتركيز على جانبٍ معيّن دون غيره.

يُعدّ الكتاب بمنزلة "خريطة طريق" بحثيّة من جهة تقسيم فصوله التي رُتّبت بعناية فائقة؛ لتكون مرتكزًا في دراسة الثورة السوريّة. إذ يمكن للباحث المهتمّ أو المختّص الانطلاق من كلّ فصل فيه -وربّما كلّ مبحث- وتطويره أو التوسّع فيه ليكوّن كتابًا أو مجلّدًا يتناول إحدى ظواهر الثورة وإشكالياتها. وبهذا المعنى جاء كتاب "سورية: درب الآلام نحو الحرية..." تحليليًّا للثورة السورية، وتعريفيًّا أيضًا بالثورة السوريّة وبطريقة دراستها وأدواتها، وجرى تقسيمه لإزالة حالة التشعّب والتشتّت التي حكمت الأبحاث في هذا المجال.

يتضمّن الكتاب ثلاثة عشر فصلًا: تراعي الفصول الخمسة الأولى التراتبية الزمنية اللازمة في عملية تأريخ الثورة وتحليلها (خلال عامين)؛ ابتداءً من التوقّف عند مرحلة بشار الأسد، وحصاد عشر سنوات من حكمه مرورًا بانتفاضة درعا، ثمّ توسّعها أفقيًّا وعموديًّا لتنطلق ثورة شعبية سلميّة عمّت معظم المحافظات السوريّة طوال عام 2011، وانتهاءً بتحوّلها بداية عام 2012 بسبب عنف النظام وقمعه، إلى ثورة تعتمد "الكفاح المسلّح" لتحقيق أهدافها، وما صاحب هذا التحوّل من تداعياتٍ مختلفة. أمّا الفصول الثمانية الأخرى، فقد جرى تقسيمها وظيفيًّا؛ بمعنى التركيز على دراسة ظواهر بعينها، ولكن مع مراعاة التراتبية الزمنية للأحداث والوقائع ضمنها، ومراعاة اتّصالها وتواصلها مع الفصول الأولى. وتحتوي هذه الفصول على موضوعات ومحاورَ عدّة: كإستراتيجية النظام في مواجهة الثورة، ومسارب الطائفية والعنف الطائفي، ومظاهر العنف المجتمعي، والمعارضة السياسية وحراكها قبل الثورة وفي أثنائها، والتفاعلات الجيوستراتيجية والمواقف الدولية، والعقوبات الاقتصادية وأثرها في الاقتصاد السوري الكلّي.

يتناول بشارة بالتفصيل عنف النظام المفرط في مواجهة تظاهرات درعا واقتحام المسجد العمري، والتضامن المحلّي الذي نجم عنه، والذي تُرجم بانتفاضة شعبية جرى تأطيرها سياسيًّا امتدّ "لهيبها" إلى عموم سهل حوران، والمحافظات السوريّة الأخرى (ص85). ويرصد هنا "استدعاء" الشعارات المسيّسة التي أُطلقت في سوق الحريقة بقلب دمشق، وأمام السفارة الليبية، مثل: (الشعب السوري ما بينذلّ)، و (خاين يلي بيقتل شعبه)،

والتـي أصبحت أيقونة تتردّد في هتافات المحتجّين، ليس في درعا فقط بل في عموم سورية.

يرفـض بشـارة الاسـتنتاجات المتسرّعة مـن أنّ ثورة سـورية هي "انتفاضة فلّاحين أو فقـراء" كونها لم تتوطّن في المـدن الكـبرى (المركـز)، ويـرى أنّ الفقـر قـد يكون محـرّكًا للاحتجـاج، لكنّه لا ينتج ثورات ترفع شـعارات سياسية. يؤكّد بشارة أنّ الفقر والتهميش لم يكونا الدافعَ الأسـاسي للثـورة، وأنّ الريف لم يكـن منطلقها. فالثورة "توطّنت في "مراكز الأطراف" المهمّشة أمام مركز قويّ اقتصاديًـا (حلـب، ودمشـق)، وأنّ من فجّـر الثورة هي عواصـم المحافظات، حيث توجد طبقة وسـطى وفئات مثقّفـة تمتلـك الوعـي السـياسي، ولديها الوعـي بالظلم والحاجات التي تؤكّد الحرمان والتهميش. وهذه الفئات قـادت الاحتجاجات وأطّرتها قبـل أن يلتحق بها الريف السوري (ص93).

يـرى الكاتـب أنّ مسـار الثـورة السـوريّة في بدايتـه يشبه مسـار الثورة التونسية. أمّا الاختلافات والفوارق، فيحدّدهـا بما يـلي: "والفـارق الرئيـس في ثورة الشـعب السـوري يكمن في "خصوصيّـة" مجتمعه المركّـب دينيًّا، وطائفيًّا، وإثنيًّا، والتي أعاقت تبلور هويّة وطنيّة جامعة، تسـمح بفصل المجتمع عـن النظام، ومن ثَـمّ النظام عن الدولة أيضًا(ص31).

يتوقّف بشـارة بالتفصيل عند حدثين مركزيّين، هما: "اعتصام حمص" في 18 نيسان(أبريل) 2011، و"الجمعة العظيمة" في 22 نيسـان(أبريل) 2011، اللذان أسهما في نقـل الحركة الاحتجاجيّـة من إطارها المحّـلي إلى الإطار الوطني الأشـمل؛ فاعتصام حمص كان النسخة السوريّة من ميدان التحرير في مصر، ويوم الجمعة العظيمة شـهد محاولة لتصدير الثورة إلى العاصمة والاعتصام في سـاحة العبّاسـيين. لم تنجح هذه المحاولات نتيجةً لعنف النظام واسـتخدامه الرصـاص الحـيّ في فضّ الاعتصـام وقمع المحتجّـين، ولكنهـا كانـت نقطة تحـوّل في مسـار الثورة من جهة ازدياد أعـداد المحتجّين وانضمام فئاتٍ جديدة، كطـلّاب الجامعـات والأطبّـاء والمحامـين، وانضـمام محافظـات إلى خريطة الاحتجاجـات، كحماة ودير الزور والمناطق الكرديّة، والأهمّ ارتفاع سـقف الشـعارات إلى "إسـقاط النظام"، والذي غدا شعارًا جامعًا للمحتجّين بعـد فـترة مـن الـتردّد والتريّـث في رفعـه (ص130). ويسـلّط الكتاب الضوء أيضًا على السـاحات الكبرى في حمـاة ودير الـزور وإدلب، والتي ضمّـت كلّ منها مئات آلاف المحتجّـين في مشـهد دحَـض روايـة النظـام عـن محدودية الاحتجاجات، وأثبتَ انحياز أغلبية السـوريين إلى الثـورة، واسـتعدادهم للمشـاركة فيهـا عنـد غيـاب القمع.

يصـف الكتـاب إسـتراتيجية النظـام ودفعـه الثورة إلى التسـلّح مـن خـلال الاعتمـاد عـلى القـوّة المفرطة في مواجهتهـا، فالشـعب السـوري صمـد في احتجاجاتـه السـلميّة أمـام الرصـاص لأشـهر طويلـة؛ لأنّ تجربتَـي تونـس ومـصر مثّلتا بالنسـبة إليـهً "نموذجًـا" يُحتذى في النضال. لكن نهج النظام القمعي، وزجّ الجيش بالكامل وفي وقـت مبكر- أجـبرا بعض الثوّار على حمل السـلاح لـردّ هـذه الحمـلات. يعـرض الكاتـب بداية التسـلّح، والذي كان أهليًّا، قبل أن يتحوّل إلى نمط "هجومي" إثر حادثة جسر الشغور التي جاءت "انتقاميّة". ينتقد بشارة إعلام الثورة لتسـتره على هذا النهج واتّهامه الجيش بقتل جنوده، ويعدّه سـببًا في عدم القدرة على التفكير العقلاني في الثـورة؛ لأنّـه بسـبب تشـويه الواقـع وإنـكاره، تحوّل النقـاش فيه حـول الحقائق ذاتها لا حـول تقييمها واتّخاذ موقف منها بوصفها حوادثَ مسيئة للثورة (ص195).

يتطـرّق الكتاب إلى إسـتراتيجية النظام الدعائية التي ركّز فيها على مخاطبـة الخارج عمومًا وبطرقٍ مختلفة؛ فقد تبنّى النظام فكرة اسـتهداف سورية من الخارج؛ لتصوير الثـورة أمام الرأي العامّ العربي عـلى أنّها مؤامرة خارجية تستهدف المقاومة. وفي الدعاية المقدّمة للغرب ركّز النظام عـلى فكرة الإرهاب الإسـلامي، باحثًا عـن دور وظيفي يقـوم به في هذا المجال. أمّا في الداخل، فيرى الكاتب أنّ

النظـام ليس مهتمًّا بتصديق النـاس دعايته بمقدار "ما هو مهتمّ بأن يتظاهر الناس بتصديقها".

يشرح الكاتب بالتفصيل المذابح الطائفية التي نفّذتها مليشـيات "الشـبّيحة"، ويحلّل عقلية المليشيات الأقلّوية التي تعتمد على الردع والقسـوة الجسـدية لردع الأكثريّة (الهويّـة المضادّة). ويركّز بشـارة أيضًا على مظاهر العنف الاجتماعـي. ويميز بـين ظاهرة العنف السـياسي (عنف الثـورة) والعنـف الاجتماعـي الـذي كان قائمًا خـارج الثورة أو سـابقًا لها، كالعنف ذي الطابع الجنائي والعنف الجهادي. يصنّف الكاتب الحركات السـلفية إلى جهادية عالميـة وفقًـا لنهـج القاعـدة، وجماعـات سـلفية تقتـصر أهدافهـا على سـورية، وأخرى (تسـلفنت) ضمن تفكير براغماتي لإرضاء الداعمين.

يفرد بشـارة نحـو مئة وثلاثـين صفحة مـن الكتاب لاسـتعراض مبادرات الحلّ السـياسي وتعثّرها، ولشرح التفاعـلات الجيوسـتراتيجية للقوى الدوليـة والإقليمية التـي تحوّلـت بحسـب توصيـف الكاتـب إلى "حليـف النظام ضدّ شعبه"؛ فالثورة جاءت في مرحلة تغيّر مفهوم الأمـن القومي لدى أمريكا بعد سياسـات جورج بوش التدخليـة، وفي مرحلـة تحـاول روسـيا أن تعيـد أمجادها السابقة بوصفها قوّة عالمية عظمى. يشرح الكتاب موقف الدول الإقليمية الفاعلة وسياسـاتها: تركيا، إيران، قطر، السعودية.

يخلـص الكاتـب إلى أنّ الثـورة السـوريّة حالة فريدة واسـتثنائية لتعقّـد ظروفهـا والعوامل المؤثّـرة فيها، وأنّ هـذه العوامـل يمكـن أن تـؤدّي إلى نتائـجَ كارثيـة إذا لم تحصل تسـوية سياسـية. والتسـوية برأيه ليسـت تسـوية سـلمية؛ لأنّ مسـار الثـورة والقتال الدائر قـد تجاوزاها، بل هي تسـوية سياسية تتضمّن رحيل النظام وبقاء جهاز الدولـة بحيـث يمهّـد الطريـق للانتقـال التدريجي نحو الديمقراطيـة. وأخـيرًا، يرى بشـارة أنّ البديـل عن هذه التسـوية هو تعمّق الـصراع، وتعقّـده، وتحوّله إلى صراع طائفي وإثنـي. يطالب الكاتب القـوى الثورية أن تلتفّ حول برنامج سـياسي وطني يتبنّى مبادئ الثورة بوصفها ثورة وطنية ضدّ الاستبداد.